مجلة أنساق للفنون والآداب والعلوم
الإنسانية
الإصدار السادس عشر
المجلد (٥) العدد (٣)
٢٠٢٤ (١-١٢)

مجلة أنساق

Middle East Institution of scientific Publishing

النسق الأسطوري للناقة في الشعر الجاهلي

د. دلال شيباني

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

نشر إلكترونياً بتاريخ: ٢٩ أغسطس ٢٠٢٤م

الملخص

إن ما ترسب في معتقدات الإنسان الجاهلي من تقديس وتأليه الناقة شكل حولها جملة من الأساطير، وتتحدد أهمية هذا البحث في تحدد التأويلات والدلالات والقراءات المختلفة للناقة قناع الشاعر ومعادله الموضوعي لتفجير مركزيتها، ومن هذا المنطلق يهدف البحث إلى الكشف عن الأنساق والصور الخاصة بقدسية الناقة، كطقس هام للعبور ورمزا للتجاوز والخلاص.

الكلمات المفتاحية: الناقة، النسق، الأسطورة، الشعر، العصر الجاهلي.

Abstract

What is deposited in the beliefs of the pre-Islamic man from the sanctification and recitation of the camel formed around it a number of legends, and is determined by the importance of this research in the renewal of the interpretations and indications and readings of the different mask of the poet and the objective equations to blow up its centrality, and from this point of the research aims to reveal the formats and images of the sanctity of the camel , As an important weather for transit, a symbol of transcendence.

Keywords: camel, style, myth, poetry, pre-Islamic era.

*** مقدمة**

لقد تأثر العرب القدامى بالناقة- سفينة الصحراء- التي هيكلت إلى حد بعيد في مختلف جوانب حياتهم النفسية والمعيشية والروحية، لما كانت تمثله من مقياس أساسي للثروة

في البداوة العربية، فقد ساهمت تربيته في نمو التجارة القوافلية، ومنها ظهور أولى الحضارات العربية بمشارف الصحراء.

فالإبل ميراث العرب يفتخرون بكثرة عددها، وإكرامها ،وسومها ،وحماية مراعيها، لما لها من شأن عظيم في حياتهم وفي أكثر قصائدهم الجاهلية، فقد كان الشاعر يحتمل ظهرها لتمضي به على طول رحلته الشاقة في الصحراء إلى طلله، وممدوحة و وجهته المرجوة، وكانت هي –الناقة– تشغله بأهم موضوعات قصائده المثرية بالأنساق و الثقافات ذات البعد العقائدي المتجذر في خفايا الأساطير فيما يخص علاقته بها وصلته الدينية و التاريخية و الكونية الوجودية بعمق قدسيتها، فأثرت على ذهنيات الشاعر وطبيعة قوانين مجتمعه القبلي وساهمت بعمق في نحت وترميز أغراضه الشعرية .

إن الأساطير أو الترسبات المعتقدية في أذهان الجاهليين حول الإبل لم تكن متمركزة ولا مقتصرة على حاجة العربي لاستخداماتها، ومنافعها الكثيرة، بل مستوحاة متبناة من قصة النبي صالح تحت مسمى ناقة صالح، كما أشارت إليها بعض الكتب الدينية والتاريخية (1).

١– نسق أسطورة ناقة النبي صالح

إن ناقة صالح كما هي في المخيال الثمودي حكاية أسطورية، تسرد خلق سقب أو ولادة ولد الناقة العظيمة الشكل، آية من آيات الله ومعجزاته في الوجود الحيواني.

تقول الأسطورة:" روي أن سيد ثمود جندع بن عمرو قال يا صالح اخرج لنا من هذه الصخرة–الصخرة منفردة ناحية الحجر يقال لها كاثبة– ناقة مخترجة جوفاء وبتراء عشراء" (2)،"تبرك بين أيدينا، وتمخض كما تمخض النوق الحوامل، وتنتج سقبا منها. فصلى صالح ركعتين ودعا الله تعالى فانشقت الصخرة عن ناقة عظيمة الخلق، حسنة الصورة فبركت بين أيديهم وتمخضت، ونتجت سقبا مثل أمه في عظم خلقه" (3)

وبالعودة لتشبيهات الناقة التي لم يعتمدها خيال الشاعر الجاهلي هباء، بل انطلاقا من أصل أسطوري وقصة تستند إلى الحجارة والصخور، فخلق هذه الناقة العظيمة التي أصبحت رمزا ملعونا مشؤوما أدى بقوم ثمود إلى الهلاك ما هو إلا تشقق للصخور (الأصل الأم أو مبدأ القوة لهذه النوق).

إن تفصيل هذه القصة يحيلنا مباشرة إلى تشبيهات شعراء الجاهلية الواردة بكثرة تعبيرا وترميزا لنياقهم فكأن هيكل تلك الناقة الضخمة، صخرة ملساء، وشعرنا لا يزال يعيد تلك الأسطورة الأولى (خروج أو ولادة الناقة من الصخرة) ظاهريا من خلال تلك التشبيهات الشعرية الدالة على قوتها وصلابتها وعظمة خلقها.

والأعشى فيشبهها باتان التمثيل. واتان التمثيل هي الصخرة في باطن المسيل الضخمة، لا يرفعها شيء ولا يحركها ولا يأخذ فيها، طولها قامة في عرض مثله (4)، يقول الشاعر:–

بِنَاجِيَةٍ كَأَتَانِ التَّمْثِيلِ تُوَفَّى السَّرَى بَعْدَ أَيْنَ عَسِيرَا (5)

أليس واضحا في هذا البيت الرابط القوي بين هذا التشبيه الصخري للناقة، وبين ناقة صالح التي خرجت من الصخرة "والتي لها تاريخ سحيق عند العرب، فناقة صالح كما ذكرها الطبري ولدت من بطن صخرة ارتجفت وظهر في جانبيها نتوء، ظل يدور، ثم تمخضت الصخرة كما تتمخض المرأة، فوضعت الناقة، ويصفها الرواة بالعظيمة" (6).

وما كانت عظمة الصخرة عند الشعراء إلا إشارة نسقية توحي بأسطورة عظمة الناقة، فهم يحيون بهذه التشبيهات المتنوعة للصخور قصة ولادة الناقة العظيمة وسقبها المماثل لها .

ولأن أصل البنيان حجر نجد مجموعة من التشبيهات الشعرية التي تربط بين الصورة النسقية للناقة والبنيان الضخم أو القصر العالي.

وهنا يتجلى فهمنا لحركة الناقة التي يجتهد فيها الشاعر ليصور سيرها وعدوها كانعكاس لقوة وصلابة كيانها القوي الضخم، وصمودها وجلدها كتجسيد لمبدأ نابع من فكرة البنيان الثابت العظيم (7).

يقول امرؤ القيس:-

فَعَزَّيْتُ نَفْسِي حِينَ بَانُوا بِجَسْرَةٍ أَمُونٍ كَبُنْيَانِ اليَهُودِيِّ خَيْفَقِ (8)

فهذا البيت الشعر يحمل في أولى وأهم معانيها الثقافية المجتمعية، دعوة للتحلي بالقوة والثبات، فما هذا البنيان العالي الصلب إلا دلالة نسقية هامة تنطوي تحت سحر الأسطورة الخاصة بالناقة الاولى، فغن كان ناقة صالح وسقبها مقدسا عجائبيا، فلا بد من أن تكون ناقة الشعراء التي تمثل بالبنيان مقدسا عجائبيا كذلك، محافظ على السر الأول، محملا بطاقته السحرية، وسيلته المثالية الجسرة الأمون/ بنيان اليهودي عند امرئ القيس

نسق الناقة العظيمة لا يتوقف هنا، فما كان سابقا ما هو إلا دلالة ظاهرية، ما عبر عنه الشعراء الجاهليون، ما كان ظاهرا في شعرهم مستمدا من أسطورتهم لخلق الناقة/ "السقب، أما على المستوى الباطني، فكانت تلك الناقة الضخمة القوية منبع شؤم وهلاك وهذا ما تطابق مع بقية أحداث عقرها.

يقول الثعالبي في ذلك:" قال لهم صالح عن الله تعالى ﴿ قَالَ هَـــذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾(سورة الشعراء، الآية 155)، فاقتسموا الماء، فكان لهم يوم و للناقة يوم، فإذا كان يوم الناقة توسعوا في اللبن ما شاءوا، و إذا كان يومهم لم يكن للناقة ماء، فنفسوا عليها بشرب يومها، و تآمروا في عقرها، فقال لهم صالح: ﴿هـــذِهِ ناقَةُ اللَّـــهِ لَكُم آيَةً فَذَروها تَأكُل في أَرضِ اللَّـــهِ وَلا تَمَسّوها بِسوءٍ فَيَأخُذَكُم عَذابٌ قَريبٌ﴾(سورة هود، الآية 64) فانبعث أشقاها، و عقرها بأمر ثمود، فرفع السقب رأسه إلى السماء ورغا بحنين و أنين، فقال لهم صالح عليه السلام:﴿ تَمَتَّعوا في دارِكُم ثَلاثَةَ أَيّامٍ﴾ (سورة هود، الآية 65). ثم جاءهم العذاب في اليوم الرابع، وأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين؛ وصارت ناقة الله مثلا سائرا على وجه الدهر. وربما قيل لها: ناقة صالح وصار عاقرها في الشقوة والشؤم، وهو أحمر ثمود، وصارت ثمود مثلا في الفناء والهلاك. ومن ظريف التمثيل بهذه القصة قول والي اليمامة في خطبته: أيها الناس لا تجترئوا على الله، فإنه لا يقر على المعاصي عبادة، ولقد أهلك أمة عظيمة من أجل ناقة قيمتها ثلاثمائة درهم؛ فسمي مقوم الناقة"(9).

فإذا كان عقر الناقة حقيقة خالصة فإن العذاب الذي حل بمهلكها هلاك له ولقومه التابعين الشاهدين على التعدي على الناقة، النسق الصامت للمعجزة الإلهية المقدسة، رمز حقيقي أيضا ترتب على ما حملته الأسطورة، لعنة تلصق بفكر العربي وعقيدته الخاصة بهذا الحيوان.

وقد أشار علقمة الفحل في قصيدة له إلى حديث ناقة صالح وكيف أن ثمود هلكت حين عقرت الناقة فرغا سقبها أي ولدها يقول:-

رَغَا فَوقَهُمْ سَقْبُ السَّمَاءِ فَدَاحِضٌ بِشِكَّتِهِ لَمْ يُسْتَلَبْ وسَلِيبُ (10)

كـــأن الأوس وما جمعت من الأحياء والأتباع تحت صدر فرس الحارث قد هلكت كما هلكت ثمود حين عقروا الناقة فرغا سقبها، فكأن القتلى أكثر من أن يحاط بهم فمنهم من سلب ومنهم من لم يسلب (11)

إن صورة ثمود في المخيال الجاهلي ترتبط ارتباطا مباشرا بناقة النبي صالح السماوية، التي كانت سببا في صعقهم ودمارهم، ويتضح فناء ثمود أو عدم وجود قبيلة أو شعب بهذا الاسم من واقعة لغوية بسيطة؛ وهي أن العرب في الشعر الجاهلي كانوا يتصرفون اسم ثمود مرة ويمنعونه من الصرف مرة أخرى، دون أن يقدموا إطارا زمانيا أو مكانيا لهؤلاء القوم، وقد تكون القصة القرآنية التي تذكرهم قد أعادت للعرب نظرتهم في أسطورتهم القديمة عن ثمود بل تمت المطابقة بين ناقة الله و سقب السماء فسمح بانتعاش الأسطورة القديمة ورمزيتها المهلكة المدمرة(12).

وربما تكون أسطورة ناقة صالح قد امتزجت بنوق أخرى ربطها العرب الجاهليون برمزيتها المفتونة باللعنة والهلاك، فتدعم وتكمل وقد تحيي أيضا أنساقها المضادة في نفوس الشعراء ونصوصهم .

٢- نسق أسطورة ناقة البسوس

وقد كانت ناقة البسوس إحدى أشهر نياق العرب مثلا في الشؤم لما لها من قيمة زمزية تمتد إلى بقايا تقديس الناقة عموما، وانتهاك جملة من المقدسات المكانية، كضرب كليب للناقة وقتلها (حمى كليب)، وكذلك انتهاكه لحرمة الجوار (لأن الناقة كانت في جوار جساس) مما أدت إلى نهايته ومصرعه لانتهاكه محرم أو مقدس تماما كما حدث من تعد لناقة النبي صالح (13).

"بل إن الحمى الذي كان لناقة صالح حمى مقدس لأنها ناقة صالح، والحمى الذي حوله كليب نفسه حمى مدنس لأنه يقوم على الجور والإفتيات؛ إذ كان يطرد الناس عن المياه حتى كاد يقتلهم عطش كما قال جساس، وبغى بغيا شديدا فكان هو الذي يترلهم منازلهم ويرحلهم ولا يترلون ولا يرحلون إلا بأمره.. وتعلق الجرم في كلتا الحالتين بالحمى، فكان جزاؤه في عقر ناقة صالح عقابا من الله تعالى أنزله بثمود إذ خالفوه أمره في قوله: ﴿فَذَروها تَأكُل في أَرضِ اللَّـهِ وَلا تَمَسّوها بِسوءٍ﴾ (سورة الأعراف، الآية 73)، وكان جزاؤه في قصة كليب قتله بأيدي جساس ومن معه، وكأنه أداة من أدوات القدر الذي يبطش بالظالمين"(14).

فالعقاب أو الانتقام الذي يلحقه القدر بمن يمس أو يتعدى على الناقة المقدسة بسوء، يحمل في الثقافة العربية والفكر الجاهلي أداة نسقية مدمرة لأن الضرر والهلاك سيصيب عددا كبيرا من البشر حتى ولو كان قوما أو شعبا كاملا مثلما حدث في ثمود وسيصيب قبيلتين بأكملهما مثلما حدث في الحرب الطويلة بسبب ناقة البسوس/ ناقة الهلاك .

بل قد يكون هناك بعدا ورؤيا أسطورية لهذه اللعنة وهذا الشرور التابع للناقة من اقترانها بالشيطان وبالجهل والنفاق، فنسبتها وصلة علاقتها المقدسة بالشمس والشيطان أدى إلى جمعهما في حقل دلالي واحد، فالإبل خلقت من أعنان الشيطان، والشمس لا تطلع إلا بين قرنيه، ولهذا تبعت

مزاعم العرب حول الإبل الوحشية التي سكنت مواطن الجن (15)

يقول الجاحظ (16) في ذلك: " وزعم ناس أن من الإبل وحشية.. فزعموا أن تلك الإبل تسكن أرض وبار؛ لأنها غير مسكونة، ولأن الحيوان كلما اشتدت وحشيته كان للخلاء أطلب. قالوا: ربما خرج الجمل منها لبعض ما يعرض، فيضرب في أدنى هجمة من الإبل الأهلية. قالوا.. فالمهرية من ذلك النتاج. وقال آخرون: هذه الإبل الوحشية هي الحوش وهي التي من بقايا إبل وبار، فلما أهلكهم الله تعالى كما أهلك الأمم مثل عاد وثمود والعمالقة وطسم وجديس إلى تلك الجيزة بعض الخلعاء، أو بعض من أضل الطريق حثث الجن في وجهه، فإن ألح خبلته؛ فضربت هذه الوحوش في العمانية؛ فجاءت هذه المهرية وهذه العسجدية التي تسمى الذهبية."

وقد نلاحظ التضاد الدلالي بين الإبل الوحشية والإبل العسجدية أو الذهبية حيث تنتقل نسقية الشر المقترن بالشيطان والتوحش الضامر في الثقافة العربية إلى الذهب المعدن النفيس.

فالعسجد في رمزيته وفي أسمائه يطلق على كل فحل كريم، أو بعير ضخم حامل للعسجد والمال (17)، وقد انعكست هذه الدلالة إلى نقيضتها من الإبل الوحشية الملعونة الهالكة والمهلكة إلى الإبل الذهبية العسجدية.

"كما يقال إن اللطيم الصغير من الإبل، سمي لطيما لأن العرب كانت تأخذ الفصيل إذا صار له وقت من سنه، فَتَقْبِلُ به سهيلا إذا طلع، ثم تلطم خده، ويقال له: اذهب، لا تذق بعدها قطرة"(18).

وهذه الإشارة النسقية الأسطورية تكسب البعير الفحل القدسية، وتضمن له قيمة المكرمة والأصالة على طول بقائه وحياته. ولا يخلو الشعر الجاهلي من ذكر هذه الشذرات والأبعاد العقائدية النجمية والفحولية في أمهات كتب ومصادر الشعر الجاهلي من مثل ما ذكره الجاحظ وابن منظور والأصمعي وكذلك المفضل الضبي وغيرهم كثير .

٣- نسق الناقة المقدسة عند العرب

إن تقديس الإبل، سفينة الصحراء وعنوان الصبر والجلد أمر لا شك فيه عند العرب القدامى قبل الإسلام. وحسبنا على ذلك دليلا الجمل الأسود الذي عبدته قبيلة طيء (19) والذي كانت تصطحبه قبيلة تميم معها في الحروب تيمنا به (20).

وكان أحد مظاهر تقديس الإبل أو النوق تحريمها أو عدم انتفاع أصحابها بها، حيث كانت الحيوانات ذات الخصوبة الرفيعة تهدى للآلهة، وترعى في الحقول بلا عائق، فمنها السائبة ذات عشرة بطون متتالية، تحمل في كل بطن منها أنثى، وكان العرب يتوقفون عن ركوبها، وتحميلها الأوزار وقص وبرها، ويمنع حلبها إلا في حال تقديمها للضيوف والفقراء (21).

فهذه الأم مهداة للآلهة، ناقة حرة، سائبة، لا تركب ولا ينتفع بظهرها، ولا تُحَلَّأُ عن ماء، ولا تمنع من كلأ، حتى تنفق بشكلها الطبيعي.

"والبحيرة: هي الناقة، كانت إذا ولدت خمسة أبطن بحروا أذنها، أي شقوها وحرموا ركوبها والحمل عليها، ولم يجزوا وبرها، وتركوها تأكل حيث شاءت، لا تطرد عن ماء ولا كلأ، ثم نظروا إلى خامس ولدها، فإن كان ذكرا نحروه

فأكله الرجال والنساء، وإذا كان أنثى نحروا أذنها وتركوها وحرموا على النساء لبنها وكانت منافعها للرجال خاصة، فإذا ماتت حلت للرجال والنساء" (22) فالسائبة أم البحيرة، وقد عرف البحر بالشق، وقد تكون اشتقت البحيرة منه.

"وهكذا كانت الحيوانات المنذورة ذات أذان مشقوقة وموسومة بأشكال شتى حيث يصار إلى إبراز صفة كل منها. وبنحو خاص، كان الجمل المئة في قطيع، يجرح في السنام، بحيث لا يعود في الإمكان ركوبه. فكان يدعي "المعنى" وكانت العملية تدعي إغلاق. إلى ذلك، عندما كان قطيع يبلغ الألف كانت عين الفحل تفقأ، تخوفا على ما يبدو من العين الشريرة. وإذا جرى تجاوز هذا الرقم، كانت عينه الثانية تفقأ"(23).

وما هذه العادات النسقية للجمل أو الناقة ذات البعد الفكري الأسطوري إلا اعترافا ضمنيا بالآلهة التي تأمن وتضمن للجاهلي خصوبة هذا الجنس الحيواني، فيقدم الشيء ليحصل على ذاته، يسيب الناقة المتصفة بالخير والخصب متوسما في الآلهة ضمان استمرار هذا النسق الحيواني وتكاثره.

بل إنه قد تنقلب الدلالة الأسطورية عندما يكون الإبل فحلا، يَحمي الجاهلي والقبيلة ظهره، ويحرمون الانتفاع به، فهو حام، إلى أن يموت فيحللون أكله من النساء والرجال.

ونجد في الشعر الجاهلي تمركزا نسقيا لناقتين مقدستين: هما الناقة البحيرة أو السائبة وناقة النبي صالح في قصيدة للشاعر بشامة بن الغدير**، ينقل من خلالها الوظيفة النسقية لأسطورة الناقة كما هي محفورة في أذهان الجاهليين، كمثال للصراع الذي يواجهه الشاعر من خلال الناقة. يقول بشامة بن الغدير:-

فقَرَّبْتُ للرَّحْلِ عَيْرَانَـــــةٌ عُدَافِرَةٌ عَنْتَرِيساً ذَمُّـــــولاَ
تَطَرَّدُ أَطْرَافَ عَامٍ خَصِيبٍ وَلَم يُثْلِ عَبْدٌ إليهَا الجَدِيلاَ
وَحَادِرَةٌ كَنَفَيْهَا المَسِيـــــــــ حُ تُنْضِحُ أَوْبَرَ شَثًّا غَلِيـــلاَ
وَصَدْرٌ لَهَا مَهْيَعٌ كَالخَلِيـــفِ تَخالُ بأَنَّ عَليهِ شَلِيـــــــلاَ (24)

يضمر النص الشعري لشاعر الجاهلية بشامة بن عمرو في بنيته تعالقا ثقافيا لمجموعة من الأنساق، تؤسس انطلاقا من بداية القصيدة مرتبطة بالبعد الأسطوري الأول المتمثل في صورة الناقة المهيبة المخيفة من خلال مفردات النص الشعري(عنتريسا) الموحية بارتباط الناقة بالشيطان في الفكر والمعتقد الجاهلي.

والناقة العنتريس هي الصلبة الوثيقة الشديدة الكثيرة الجواد، الجريئة، الداهية والعنتريس هو الذكر من الغيلان، وقيل: بل هو اسم شيطان (25) وبهذا يكون الشاعر قد أعاد للناقة ذاكرتها الأسطورية، فكأنها غول أو شيطان، هي عيرانة لها مجد مهيب .

إن ناقة بشامة بن الغدير الكاملة الأوصاف تشي في أبسط دلالاتها بالتحول إلى الناقة السائبة أو البحيرة، فهي تطرد أطراف عام خصيب بكامل حريتها، حيث شاءت دون ان تُمنَعْ، كما تحمل ملامح أسطورة ناقة النبي صالح الذي أمر قومه بتركها تشرب وترعى كيفما شاءت دون أن يمسوها بسوء، ولكن القراءة الفاحصة في ما وراء المعنى الأسطوري لأبيات بشامة بن الغدير لناقته المقدسة التي تحظى بدلالة القوة و الصلابة، وهي دلالة ايجابية يُقابلها الشاعر بصفة العقم، "لأن البيت نفسه يشير إلى عقمها الذي يكسبها القوة، والسائبة لا يمكن أن تكون عقيمة، بل إنها تستمد قدسيتها من خصوبتها. كما أنها ذات وبر، كما يشير البيت الذي صور

الوبر المتراكم تحت حنكها، والبيت.. الذي شبه فيه صدرها بوبر الشليل وقد اعترض الأصمعي على هذا الوصف لأنه يرى أنه أخطأ في هذه الصفة لأن من صفة النجائب قلة الوبر والانجراد، وإنما توصف بكثرة الوبر الإبل السائمة، ولا توصف بالوبر نجيبة عتيقة كريمة. ولكن الشاعر لم يرد أن يوصف نجيبة عتيقة كريمة، بل ناقة مقدسة تسمو إلى الكمال، والأخرى ناقة النبي صالح.. وهي لم تلد، بل خرج فصيلها من الصخرة التي خرجت منها، وكانت أيضا ذات عرف وناصية وشعر ووبر، مما يؤكد أن بشامة أراد أن تكون ناقته مقدسة عندما قربها من صفات ناقة صالح بجعلها ذات وبر"(26)

فيوظف بشامة بن الغدير الناقة نسقا ثقافيا يتماشى مع المعتقد والفكر الأسطوري الذي يمد الشاعر وقبيلته بالقوة والشجاعة والثبات اللازم لمواجهة الموت والفناء، عبر سير الناقة وحركتها السريعة المنوطة ببنية الرحلة التي استحضرت النسقية الرمزية والأسطورية للناقة التي تتماهى وتوتر ذات الشاعر/ القبيلة، في عمقها الواعي وغير الواعي، الحاضر والماضي، المؤثر والمتأثر.

فالشاعر هنا استصرخ الناقة لتخرج به من الصمت إلى الحياة الكثيفة يتشبث بها ويقيم فيها الوجود المستحكم الذي يغالب الدمار والطريق الوعر الذي يسلكه بدءا من سكون الهم الأصم (27).

إن التعبير عن الناقة كمجرد وسيلة للرحلة عبر الأراضي الصحراوية القاحلة التي تحتاج حيوانا صبورا على الكلأ و العطش، ومتحملا المشاق الصعبة للمخاطر الطبيعية المفاجئة والمعتادة الظهور سواء للشاعر/ الإنسان أو للناقة/ الحيوان/ وسيلة الرحلة لاتهام في غاية الخطورة يصيب تراثنا الشعري القديم بالتكرار الأجوف ويتعدى كذلك ليمس شخصية وخيال الشاعر فيتهمه بالسطحية و انعدام العمق في التفكير وتعداد المواصفات الخاصة بالناقة وتقصيها دون دافع قوي أو سبب وجيه، يلح على الشاعر لبعث المعاني ،والصور المختلفة التي تجعل من خطابه الشعري ،ووسيلته الحيوانية تستدعي الاهتمام والدراسة، وحتى الانتقال عبر الحضارات ومختلف الثقافات، ولهذا نعتقد بعمق وصدق التجربة الشعرية، فهي الوجه الخفي، الفكرة المضمرة، القناع المزدوج الذي يبدي الشاعر فيه وجهه تارة، ووجه ناقته تارة أخرى، كأنهما صورتين لموضوع واحد، جنسين بأرق و هم واحد يشترك فيه القارئ و الدارس من جهة، والشاعر من جهة أخرى في فهم المقاصد الحقيقية ذات البعد النسقي لأداة الرحلة/ قناع الشاعر/ الناقة.

وهنا كانت الناقة نسقا مضمرا تمثل قناعا مهما بل توحدا عظيما مع شخصية الشاعر فهي من جهة تعبر عن فكرة الموت و حتميته في ترسباته الأسطورية من التعدي على ناقة النبي صالح و صرع ناقة البسوس الذي كان ضربا من انتهاك محرم أو مقدس لذا وصفهما معظم الشعراء بالقوية الصلبة التي تتعرض لأخطار الصحراء و هذه جهتها الأخرى ثم يتخذونها وسيلة لخلاصهم و تجاوزهم المحن و الصعاب و الحزن والتيه من خلال شعرهم كنسق ظاهر فهم يجمعون بين متناقضين يصعب دمجهما و لكن ليس من المستحيل ربطهما و إيجاد تفسير يزيل ما اعتراهما من غموض إذا ما فهمنا بيئة الجاهلي و أخذنا فكرة عن مبادئ عيشه.

" ونستطيع أن نلخص إلى أن الناقة كانت حيوانا مهما له فوائد جمة و منافع كثيرة و أنه قد تراخي الرمز

الأسطوري لها و أصبحت في الشعر موضوعا نمطيا تتكرر صورته وإن ظلت هناك بعض الرواسب الأسطورية التي تتصل بعالم الشعر و بالأنماط البعيدة منه حيث نرى أن الجدل بين الشاعر و الناقة لا يتم من خلال موقف عبودية الإنسان لها، و إنما من خلال عبودية الناقة له حيث نراها مسخرة مسيرة بإرادته"(28)ومن هنا نتساءل كيف تتحول الناقة من إله و أسطورة و حيوان مقدس يخافه الشاعر، ويسعى لإرضائه و عبادته إلى أن تصبح هي بنفسها من تعبده و تطيعه و تحمل عنه أعباء و مشاق حياته وآلامه وآهاته.

فإذا كانت الناقة تحمل الجاهلي راغبا أو راهبا، تسقيه لبنها وتعطيه وبرها، فإن من مفاخر الجاهلي أن تخشاه الإبل، فلا تأمن الناقة القوية ضربته، ليقدمها بعد ذلك طعاما لضيوفه وأهله، يقول أعشى باهلة في رثاء أخيه :

لاَ تَأْمَنُ البَازِلُ الكَوْمَاءُ ضَرْبَتَـــهُ بِالمَشْرِفِيِّ إِذَا مَا اخْرَوَّطَ السَّفَرُ
وتَفْزَعُ الشَّوْلُ مِنهُ حِينَ يَفْجَؤُهَا حَتَّى تَقَطَّعَ فِي أَعْنَاقِهَا الجُـــرَرُ (29)

فالإبل تعودت أن يعقر منها فإن رأته ـــ أي شاعرنا – كطمت على جرحها فرغا منه وهذا ما تحول إليه نظام الناقة الحيواني في المجتمع الجاهلي.

"فتحولت لعنة الناقة الأول هنا من الناقة الحيوان المقدس إلى ناقة الشاعر الحيوان الراحلة المغلوب على أمرها. فهي لم تكن إلا كائن حي لابد أن ينتهي إلى فتور الحياة فيه ودخوله طور الفناء. وكان من دلائله على ذلك أنه عرض طرفة لموقف قومه حيال إكثاره من الشراب شبه نفسه بالبعير الذي يستبعد وينبذ لإصابته بالجرب ودهنه بالقطران.. وفكرة الفناء في هذه الصورة تبدو لنا أكثر وضوحا ومباشرة لأن الربع هنا ظهر ميتا تماما لا تنبض فيه أية حياة، على حين ظل شيء منها قائما في البعير مادام الأمر اقتصر على الإزداء والنبذ"(30).

يقول طرفة بن العبد:-

إِلَى أَنْ تَحَامَتْنِي العَشِيرَةُ كُلُّهَا وأُفْرِدْتُ إِفْرَادَ البَعِيرِ المُعَبَّدِ (31)

فزعموا راغبين إلى أسطوريتها وتفردها، ومن مظاهر ذلك أن العرب كانت تكوي الجسم السليم وتترك الجمال التي وقع فيها العر- وهو داء يشبه الجرب- مريضة دون كي زاعمة متوهمة شفائها (32)

يذكر النابغة الذبياني ذلك في إحدى إعتذارياته:-

حَلَفْتُ، فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيْبَةً، وَ هَلْ يَأْثَمَنْ ذُو أُمَّةٍ، وَهُو طَائِعُ؟
لَكَلَّفْتِنِي ذَنْبَ امْرِئٍ، وَ تَرَكْتُهُ، كَذِي العُرِّ يُكْوَى غَيْرُهُ، وَهُو رَاتِعُ (33)

فحتى بعد هذا تختلف الأدوار، وتصبح الناقة تعبد شاعرها وسيدها لا يحد هذا من نسج الأساطير حولها كما سبق توضيحه.

*** الخاتمة**

إن الناقة المقدسة شكلت في رؤى وتفكير الشاعر الجاهلي العميق النابع من الاعتقاد القديم الأسطوري رموزا ودلالات متصلة بعضها ببعض وفق مجموعة أنساق تعادل موضوعيا الذات الشاعرة، الخائفة، المتوترة، تميم في أراضي الصحراء القاحلة بحثا عن مأمن ومصدر للقوة/ وجه الناقة/ النسق الصبور الثابت أمام المحن والمصاعب حاملة أسطورة الناقة المتحجرة، في نفس الشاعر، العابرة والمعبرة، الطامحة الطامعة خيرا وحبا وعطاء وقوة.

وبهذا يكون نسق الناقة يحمل دلالة ثقافية مضمرة تمثل قناعا يختفي شكل الشاعر ويخافت بصوته عبرها على المستوى الشعري الظاهري، ولكن على المستوى الباطني يكون

هو المقصود، تكون أزمته هو وحده، مسافاته الطويلة في صحرائه الصعبة، آثار ديار محبوبته التي خلفت برحيلها جروحا وتشوهات بالغة في نفس الشاعر وفي فلسفته الوجودية أو الفنائية، فتكون رموزه بين الحياة والموت، الخصب والعقر، التأزم والتجاوز، الانكسار والخلاص، الضعف والقوة.

*** الهوامش**

١- ينظر عصام محمد المشهراوي، دلالة الوحدة في قصيدة الشعر الجاهلي، مجلة جامعة الأزهر، العدد 02، المجلد12، غزة، فلسطين، 2010م، ص125.

٢- لطفي عبد البديع، عبقرية العربية، الشركة المصرية العالمية للنشر القاهرة، مصر،1997م، ص161.

٣- أبي منصور عبد الملك ابن محمد بن اسماعيل الثعالبي النيسابوري، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ط1، 1424هـ ـ 2003م، ص32ـ 33.

٤- ينظر محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الإفريقي، لسان العرب، تح: عبد الله الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، مصر، دط، دس، مادة (أتن)، ص21

٥- ميمون بن قيس الأعشى، ديوانه، شرح وتقديم، محمد حسين، مكتبة الآداب الإسكندرية، مصر، دط، دس، ص 129.

٦- محمود شكيب أنصاري، عاطي عبيات، ملامح أسطورية في الشعر الجاهلي، مجلة آفاق الحضارة الإسلامية، العدد25، ربيع وصيف 1389ه، ص 15.

٧- ينظر مصطفى شميعة، القراءة التأويلية للنص الشعري القديم، (بين أفق التعارض، وأفق الاندماج)، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن ط1، 2013م.، ص 264.

٨- امرؤ القيس، ديوانه، شرحه: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 1425هـ، 2004م، ص 129.

٩- الثعالبي النيسابوري، ثمار القلوب، ص32ـ 33.

١٠- علقمة الفحل، ديوانه، شرح: السيد أحمد صقر، المطبعة المحمودية، القاهرة، مصر ط1، 1353هـ، 1935م، ص17.

١١- أنظر علقمة الفحل، ديوانه، ص17

١٢- ينظر سعيد الغانمي، ينابيع اللغة الأولى، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، الإمارات، ط1، 2009، ص72-73

١٣- ينظر سعيد الغانمي، ينابيع اللغة الأولى، ص 288.

١٤- لطفي عبد البديع، عبقرية العربية، ص181.

١٥- ينظر محمد عجينة، موسوعة أساطير العرب في الجاهلية، ص 287ـ 288.

١٦- أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تح وشرح: عبد السلام محمد هارون مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط2، 1385هـ / 1965م، ج1، ص 150ـ 151.

١٧- ينظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (عسجد)، ص2938

١٨- ابن منظور، لسان العرب، مادة(عسجد)، ص2938

١٩- ينظر محمد عجينة، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية، ص 287

٢٠- ينظر عصام محمد المشهراري، دلالات الوحدة في قصيدة الشعر الجاهلي، ص125.

٢١- ينظر يوسف شلحت، الأضاحي عند العرب، تعريب وتذييل: خليل أحمد خليل، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 2003م، ص 87ــ88.

٢٢- المرجع نفسه، ص 158.

٢٣- يوسف شلحت، الأضاحي عند العرب، ص88ــ 89.

٢٤- المفضل الضبي، المفضليات، تح وشرح: ــ أحمد محمد شاكر- عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط6، دس، ص 54ــ 55ــ 56ــ 57.

٢٥- ينظر ابن منظور، لسان العرب مادة(عترس)، ص2797

٢٦- عمر بن عبد العزيز السيف، بنية الرحلة في القصيدة الجاهلية، (الأسطورة والرمز)، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، 2009م، ص 122ــ 123.

بشامة بن الغدير: هو عمرو بن هلال بن سهم بن مرة بن عوف بن سعد ابن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان، وهو شاعر محسن مقدم، وهو خال زهير بن أبي سلمى (المفضل الضبي، المفضليات، ص53)

٢٧- ينظر لطفي عبد البديع، عبقرية العربية، ص 185ــ 186.

٢٨- حسنى عبد الجليل يوسف، الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2001م.، ص 446.

٢٩- أبي سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك الأصمعي، الأصمعيات، تح وشرح أحمد محمد شاكر ــ عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط3، دس ص 89. فالناقة كانت عنصرا مقدسا، يدفعهم إلى هذا التقديس، شعور بالتشاؤم منها في ملامح الغنا التي تقترن بها، بعد الصيحة التي أخذتهم إثر ناقة صالح وناقة البسوس (محمود شكيب أنصاري، عاطي عبيدات، ملامح أسطورية في الشعر الجاهلي ص15)

٣٠- ريم هلال، حركة النقد العربي الحديث في الشعر الجاهلي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، دط، 1999، ص 42.

٣١- طرفة بن العبد، شرح ديوانه، شرح: الأعلم الشمنتري، تح: درية الخطيب- لطفي الصقال، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 2000م ص 44.

٣٢- محمود شكيب أنصاري، عاطي عبيدات، ملامح أسطورية في الشعر الجاهلي ص 16

٣٣- النابغة الذبياني، ديوانه، شرح: حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2 1426هـ،2005م، ص77ــ 78.

*** المراجع**

القرآن الكريم، برواية ورش عن نافع.

المفضل الضبي، المفضليات، تح وشرح: ــ أحمد محمد شاكر- عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط6، دس

النابغة الذبياني، ديوانه، شرح: حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2 1426هـ،2005م

امرؤ القيس، ديوانه، شرحه: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2 1425هـ، 2004م

حسنى عبد الجليل يوسف، الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2001م

ريم هلال، حركة النقد العربي الحديث في الشعر الجاهلي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، دط، 1999

سعيد الغانمي، ينابيع اللغة الأولى، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، الإمارات، ط1، 2009

أبي سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك الأصمعي، الأصمعيات، تح وشرح: أحمد محمد شاكر ــ عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط3، دس

طرفة بن العبد، شرح ديوانه، شرح: الأعلم الشمنتري، تح: درية الخطيب- لطفي الصقال المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 2000م

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تح وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط2، 1385هـ / 1965م

عصام محمد المشهراوي، دلالة الوحدة في قصيدة الشعر الجاهلي، مجلة جامعة الأزهر العدد 02، المجلد12، غزة، فلسطين، 2010م

علقمة الفحل، ديوانه، شرح: السيد أحمد صقر، المطبعة المحمودية، القاهرة، مصر، ط1 1353هـ، 1935م

عمر بن عبد العزيز السيف، بنية الرحلة في القصيدة الجاهلية، (الأسطورة والرمز) مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، 2009م

لطفي عبد البديع، عبقرية العربية، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، مصر، 1997م

محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الإفريقي، لسان العرب، تح: عبد الله الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف القاهرة، مصر، دط، دس.

محمود شكيب أنصاري، عاطي عبيات، ملامح أسطورية في الشعر الجاهلي، مجلة آفاق الحضارة الإسلامية، العدد25، ربيع وصيف 1389ه .

مصطفى شميعة، القراءة التأويلية للنص الشعري القديم، (بين أفق التعارض، وأفق الاندماج)، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط1، 2013م.

أبي منصور عبد الملك ابن محمد بن اسماعيل الثعالبي النيسابوري، ثمار القلوب، في المضاف والمنسوب، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1 1424هـ ــ 2003م

ميمون بن قيس الأعشى، ديوانه، شرح وتقديم، محمد حسين، مكتبة الآداب الإسكندرية، مصر، دط، دس

يوسف شلحت، الأضاحي عند العرب، تعريب وتذييل: خليل أحمد خليل، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 2003م